المفارقة في رسالة "الهناء" للمعري أبي العلاء

سحر محمد شريف الجاد الله

مدرس، مركز اللغات، جامعة اليرموك، إربد، الأردن

الملخص

تشكّل رسالة الهناء هاجساً لدى قارئها؛ بما تثيره من تساؤلات وغرابة وتناقضات، تحمله على إعادةِ قراءتها بشكلٍ مغاير لما يظهر منها، فكانت المفارقة الآلية المناسبة لتحليلها وقراءتها قراءة سليمة توصل القارئ لمرحلة الهدأة المعرفية وتبدّد ما اعتراه من إحساس بالغموض والغرابة.

وكانت المفارقة اللفظية بأسلوبيها والمفارقة الدرامية من أهمّ الأنماط الحاضرة في رسالة "الهناء"؛ لذا قامت الدراسة بدايةً على تعريف أهمّ هذه الأنماط، ثم وقفت على النصّ بتراتبية مشيرة إلى أهمّ مواطن المفارقة وأنواعها وَفْق ما يقتضيه النصّ، فتداخلت بعض هذه الأنماط في التحليل، كالمفارقة الدرامية، ومفارقة الأحداث، والمفارقة الملحوظة.

مقدمة

هذه إحدى ذخائر شاعر المعرّة، وشاغل الناس، أبي العلاء المعرّي، ذلك الرجل الذي نظم فأطرب، وكتب فأعجب، الفيلسوف الذي طحن الأيّام يُفكّر، ولا يني يغالب النجوم رفعة، والفرقدين سناً ولمعة، وكأني به لم تسعه الراكدة، فتاق للسماء يسبح بين كواكبها، ويتجول بين أقمارها، ويصطاد أبراجها ولآلئها، لينظم ذلك أدباً يتخلّد بخلود هذه الأرض . . . هذه الأرض التي أكلت أبا العلاء، لكنها لم تأكل أدبه، فهاهو ذا برسالته هذه يحدونا لأن نستنطقها فنستنطقه ثانية.

إنّ دراسة أيّ عمل من أعمال أبي العلاء تستلزم نظرةً عميقة تتجانس والفكر العلائي الثاقب؛ لذا فقد وقفتُ مع رسالة الهناء وقفة متأمّلة مُتفكّرة، وبعد أنْ أنهيتُ قراءتها، كان أولُ شيء أثارني فيها وولد شعوراً غريباً وغامضاً في نفسي هو مطامنة أبي العلاء من نفسه إلى حد أنه جعل مثله فأراً، فقد أخذني وقع ذلك التمثيل، كيف يمكن أن يتوازن هذا مع ما عرفنا عن أبي العلاء؟!. هذا بالإضافة إلى التعارض الجليّ الذي كشف عنه تصوير المعري المثالي للحال السياسي والاقتصادي في زمنه مع التمني المسهب للخير والمال والطعام، هذا التمني الذي شاركت فيه الطبيعة الإنسان؛ إذ كيف يتوازن ذلك الحال السياسي والاقتصادي المثالي مع ذلك التمني للطعام والمال؟. ولذا فقد سعيتُ جاهدة في البحث عن مراجع كتبت عن هذه الرسالة، لكني لم أعثرْ على أيٍّ منها، فعدتُ أدراجي لذلك المحراب، أستقرئ النصّ، وأستكنه الفكر، لعلّي أعود منها بنبأ.

إنّ رسالة الهناء تشكّل هاجساً لدى قارئها؛ فبعد أن يطوي صفحاتها منتهياً منها، لا يقبل الوقوف عند معانيها الحرفية، وفهمها السطحي، وموضوعها الظاهر، ففيها من التورية والإلغاز ما يسْتحثّه على عدم القبول بالظاهر، بل النظر إلى ما وراء السطور، فكَم المفارقات الموجود فيها يشحذ الذهن بضرورة قراءة النصّ قراءة أخرى تُغاير ما يُطالعنا منه. فكنتُ كلّما قرأتُ الرسالة، ازددْتُ إحساساً بأنّ فيها شيئاً ما يستدعيني ويغريني، ويطالبني بنطقه، إنّ وراء السطور

سطوراً، فأقلّبُ الرسالة مرّة أخرى، وأخرى، لتتوقف حواسي عند بعض المفردات، والإشارات، والمعاني التي كانت بالنسبة إليّ مفاتيح اتّكأتُ عليها في قراءتي هذه الرسالة وتحليلها. وقبل أن أشرع في بسط قراءتي لها لعلّه من المفيد أن أقدّمها معرّفة بها.

رسالة الهناء

وهي رسالةُ بعث بها أبو العلاء إلى "أحد معاصريه من الكُبراء يُهنّئه فيها بقدوم وزير السلطان "شبل الدولة" إليه، ونزوله عليه"[1]. وشبل الدولة: هو أبو كامل نصر بن صالح بن مرداس، وقد نجا بعد أن قُتل أبوه في سنة 420هـ، ثم ملك حلب وبقي بها إلى سنة 429هـ[2].

ويظهر من الرسالة أنّ كنية وزير شبل الدولة (الضَيْف) أبو عليّ، أمّا كنية (المضيف)، فهي أبو فلان، من دون تعريف بهذين الكبيرين أو الوزيرين أو المشيرين، وينعتهما أبو العلاء بـ "سيّدانا الأستاذان"، فهما، كما يفهم من الرسالة، مشيرا السلطان "شبل الدولة"، هذا كلُّ ما يطالعنا به أبو العلاء من أمر هذين الأستاذين اللذين تقدّم برسالته إليهما مُهنِّئاً.

المرسل: أبو العلاء المعري.

المرسل إليه: أحد الكبراء أبو فلان (المضيف).

المناسبة: تهنئة أبي فلان بقدوم حليف الجلالة أبي علي (الضيف) إليه ونزوله عليه.

الزمان: الدولة المرداسية زمن (شبل الدولة) أبي كامل نصر بن صالح بن مرداس.

المكان: معرّة النعمان (حلب).

وبعد أن يقدّم أبو العلاء تهنئاته المقرونة بالنور والسناء للأستاذ أبي فلان، يعتذرُ عن تصديه للتهنئة، فهو ليس كفئاً لها؛ لأنّ التهنئة يجب أن تقع بين الأكفاء والنظراء، لا على مقدار المقة والصفاء، "وبما أن ذينك الرئيسين الوزيرين كانا نصرانيين، فلا يوازيهما في الكفاءة إلّا مَنْ كان مُدَبّراً لشؤون

الحكام من النصارى كعدي بن زيد العبّاديّ النصراني في كتابته للنعمان، أو ممّن كانوا في الأصل نصارى مثل سهل بن هارون وصاعد بن مَخْلَد "[3].

ويضربُ أبو العلاء لحاله في تصدّيه لهذين الأستاذين بالتهنئة وتعرّضه لها، وهو غير كفءٍ، مثالين قصصيين على ألسنة الحيوانات:

القصّة الأولى: الأسد والفأر

وهي قصة أسد ظفر بفرسٍ لبعض الملوك، لم تسمُ لركوبها نفس الصعلوك، وساق الأسد الفريسة إلى العرّيسة (موضع الأسد)، فجاءت أصنافُ الوحش مُهنّئات، خشّعاً من الهيبة مُتجنِّئات (منحنيات)، فتقدّم للتهنئة فِرْنب (ذكر الفأر)، فغضب الأسد، وأوحى نمر إلى هرّ أنْ يُنزِل بالفأر ما سنح من الشرّ، فجعل الفأر يصيح وهو بين مخالب الضَّيْوَن (القط): "**ما ذنبي! أُوكَلُ في جوار الجبّارِ: أسامةَ!، فقال له بعضُ الأجناد: "أهلتَ نفسك لخطاب ما كنتَ له بأهل، فَعُددْت من أصحاب السَّفهِ والجهل**"[4].

القصة الثانية: الجارح والعصفور

وهي قصة جارح من جوارح الطير عظيم، عادَ لأفراخهِ بإحدى الفُور (الظباء)، فصمتت ذوات الأجنحة إلّا العصفور، فقد وقف مُهنّئاً مادحاً، فقال الجارح لبازٍ: "لاقِ هذا الجاهلَ بسوءِ التثريب (الأخذ على الذنب)، مَن هو حتى يتكلّم لديّ؟!"، فأومأ البازي إلى باشقٍ بالحضرة، فأكلهُ مُعْتاماً (مختاراً)، وترك أفراخه أيتاماً.

وبعدَ أنْ يسوق أبو العلاء هذين المثالين ليدلّل بهما على أنّه غير أهلٍ لتلك التهنئة، يذكرُ أقرانه وأكفاءه، وهم حملةُ العصيّ، أو مَنْ لا يُعرفون بشيّ، وعبّر عن ذلك بقوله: "**ضُلّ بنُ ضُلّ أو هيُّ بن بَيّ، وكلاهما ليس بشيّ**"[5]. ويشرح أبو العلاء عبارته هذه بقوله: "ويُقال هو "ضلٌّ بْنُ ضلّ" إذا كان لا يُعرفُ، ولا يُعرف أبوه . . .، و "هي بن بَيّ" رَجُلٌ: رَحَل من ولد آدمَ ذهب في الأرضِ فلم يُوجَد له خَبَرٌ، وقيل: قُتل فلمْ يؤخذْ بثأرِه"[6].

وهذا كلّه لا يخرج عن كونه نكرةً غير معروفٍ مَنْ هو، وفي ترجمة كامل كيلاني للرسالة يقول: "وشتّان بين النَّكرات، من حملةِ العُكّازات، وبين السَّروات، من حَملةِ الشّارات، وأهل الرّياساتِ والمشورات"[7].

ويأتي أبو العلاء بأمثلةٍ عديدة لأقران ممدوحيه، يستحضر فيها المثنيات في اللغة، فهما لا يُعدل بهما الأصفران (الذهب والزّعفران) قيمة ونفاسة، وهما في الهداية مثل القمرين، وعهدهما في العدل كعهد العُمرين (عمر بن الخطاب، وعمر بن عبد العزيز)، متى سمّي روقا فزارة في الحسب (أي سيدا فزارة وهما عمرو بن جابر، وبدر بن عمرو)، نوقن أنهما ريّقا نبأ يُسمّى الوزارة، جاء في ترجمة كامل كيلاني للرسالة: "الرَّيْق والرَّيِّق: أول الشباب، والمراد ما يروع الخاطر ويحسن في السمع من أنبائهما"[8]، وكذلك هما للسارية فرقدا ليل (الفرقدان: نجمان)، إذا قال المادح: هما الحرّان، فلا يعني نقيضي عبدين، ولا اللذين ذكرهما الأخطل بسُكْر البَرْدَيْن (الغداة والعشي)، وليس غرضُه حُرَّيْ مَعَدٍّ (وهما عُتَيْبة بن الحارث بن شِهَاب اليَرْبُوعِيّ، وعامر بن مالك الكِلابيّ)، ولا مُعْتَمَدّ من أثنى: الحرّان اللذان هما حُرّ وأبيُّ، وإنّما يُشبّهان بالحرّين اللذين هما كوْكبان.

ويطيل أبو العلاء بتقريظهما؛ فهما كالربيعين اللذين يجيئان الناس بالخصب والإنعام، أي نيسان وأخاه، فهما جمال الأيام وبهاؤها، بهما تزهر الحياة، ويحلّ النور والحسن. ويتبع هذا بدعاء لهما هو: "**ما زَالا - لِسَكَنِ هذه الرُّبُوعِ - أَنْفَعَ من الحَنْتفين، وَيَشْرُفَانِ على كلّ مَيْن، لا كَشَرَفِ الزَّهْدَمَيْنِ، وَلَعَلَّهُمَا في بَني عَبْسٍ، تَقَدَّما بالرَّهَقِ والأَبْسِ**"[9]. يشرح كامل كيلاني كلام المعري هذا فيقول: "والحنتفان تثنية غلبَ فيها أحدُ الاسمين على الآخر، والمراد بهما: "الحنتفُ" و "أوْسٌ" ابنْا "سيف بن حِمْيريّ بن تميم"، وكذلك الزَّهْدمان تثنيةٌ داخلةٌ في باب التغليب، والمراد "زَهْدَمٌ" و "قيسٌ" أوْ "زهدمٌ" و "كرْدمٌ" وهما من بني عبس، ولا يبعُدُ أنْ يكونا قد بنيا شرفهما على الرَّهْقِ والأبْسِ، والرَّهَقُ الظلم وارتكاب الشرور، والأَبْسُ التصغيرُ والتحقيرُ"[10].

وينتقلُ أبو العلاء بعد هذا لمهاجرة الأستاذ أبي فلان إلى الملك ذي التاج

(امبراطور الروم) "بتفويض من شبل الدولة، لتأمين الطرق وافتكاك الأسرى، وسوف ينال على ذلك سعادة في الدار العاجلة (أما الآجلة فإن الحيتان تكفلت له بالدعاء أن يثاب على وفائه "في الدارين")؛ وذلك لأنه قام بضروب من أعمال الخير "ودأب في صلاح الشرعين" (الشرع الإسلامي والمسيحي) (أو الطريقين بين مملكة حلب وبيزنطة)"[11].

ويعقّب المعري على هذه المهاجرة بأنها تفوق مهاجرة أخي كندة (امرئ القيس)؛ لأنّ امرأ القيس سلك المسالك إثارة للحرب وسعياً في الفساد، أمّا الأستاذ فمهاجرته في مصالح البلاد والعباد "**والأستاذ سهر لإيمان السّارية من الآساد، . . . . ، إذ خلّص أسيراً، أو جَبَر بُعْرفِه كسِيرا**"[12]، وهو بفعله هذا كأنّما أحيا أهل الأرض جميعاً، لقوله تعالى: ﴿**أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا**﴾[13].

ويمعن أبو العلاء بتعظيم مهاجرة الأستاذ أبي فلان الذي لو جاز أن ينشقّ البحر لغير موسى الكليم لانفرق لُجّه له غير مُلِيم (غير آت ما يستحق عليه اللوم)، ولقالت الحيتان المُتفكّنة (المتعجبة): ما حدث هذا الأمر الكبير (نضوب الماء) إلّا لخطْب قضي من السماء، فمن هذا الرجل الصالح الذي عمل خيراً في الصَّرْعين (الليل والنهار)، ودأب في صلاح الشَّرْعين، حتى تولّى الله مكافأته عن الإنس!!

ولا يمتنع أن يعذب ببركة هذا الرجل الصالح الماء الأُجاج (المالح)، فيعود كأنه من النَّحْل مُجَاج (عسل)، أو تسير السفينة على اليبس تضيء كالقَبَس (الشعْلة)، في يد متعجّل سريع، أو تحملها الريح الهابّة كحملها عَرْشَ بِلْقيس، ولا يمتنع مع كل هذا من نضوب الماء، وجري السفينة على اليبس، أو طيرانها في الهواء، أن تظل سواكن البحر من سمك وحيتان ببركة أبي فلان راتعات، وبالسلامة متمتّعات، تجول في الفلوات الواسعة كخيط النّعام (الجماعة من النعام) المخوّدة (المسرعة)، أو كالرَّبْرَب (القطيع من بقر الوحش).

حتى إذا قضى أبو فلان لُبانته (حاجته) من هذه الهجرة، وآنس النجح،

عاد الماء إلى مستقرّه، ورجع كل أمر لسابق عهده، وفي نص الرسالة: "**حَتى إذا هُو قَضَى اللُّبَانَةَ، وآنَسَ مِنَ النُّجح إِبَانَةً، عَادَ لِمُسْتَقَرِّهِ الْغَمْرِ، وخَمَدَ مِنَ الإِفْكِ الجَمْرُ**"[14]. ويشرح كامل كيلاني قول المعري "وخَمَدَ مِنَ الإِفْكِ الجَمْر" بقوله: "فاستقامت طبائع الناس، وعزفُوا عن الأكاذيب والترّهات، وتجنبوا طريق الإفك والشُّبهات"[15].

وهنا فقد تحدث المعجزات فينطق الله جبال الرّوم، وتتمنى أنّ يصير كل ما يغطي الأشجار المثمرة، وما ينبت في الرياض أو الغياض ديباجاً وحريراً، يقدمُ به السيد أبو فلان من حضرة الملك ذي التاج هدية للسلطان شبل الدولة؛ ليفرّقه على القبائل الخاضعة للدولة وعلى أعوانها وفقرائها، ويأخذ منهم البيعة، كما تتمنى أنّ ما يسقط عليهم في الأشهبين، (عام أشهب أي مجدب؛ لأن الزرع يشهب فيه)، يصير بقدرة الله من لُجيْن (فضة)، فيُحمل إلى الحضرة ليفضّه السلطان على الأولياء، ويكونَ سبب سعادةِ الأشقياء.

ليس هذا فحسب، بل إنّ الدرب الضيق يبتهلُ إلى الله – جلّت عظمته – أن يزيده اتّساعاً، واللصابُ (الشعب الصغيرة في الجبل)، والحِرَحَةُ (الأماكن الضيقة) تصيرُ كَفِيْح السَّباسِب ((جمع سبسب) وهو (المفازة أو الأرض المستوية البعيدة)، وتكون الأحجار الخَشِنة كرِقّ النَّعَام، والأَكَمَة (التل) خواناً للطعام يصيبُ ما طلب منه الساغب (الجائع)، وهو مُرِيح أو لاغب (مُتْعب).

ويعلّق الدكتور إحسان عباس على تخيلات المعري هذه بقوله: "ويبدو من هذه التخيلات التي لم تُخْطِرْ على بال المعرّي سوى الثياب والنقود أنّ مملكة حلب في ذلك الحين كانت تشكو ضائقة اقتصادية، وأن غرض السفارة إنما كان لتأمين الطرق التجارية"[16].

ويختم أبو العلاء رسالته بالدعاء للأستاذين بأنْ يُذلَّ الله معاندهما أخرى المنُون (إلى الأبد)، وعادَ في سياق الدعاء إلى التقريظ فقال: "**إذا كان السلطان المكرّم شبلُ الدولةِ أسد النجوم، كانا – لا محالة – ذراعيه، وإن أُغْلق بابُ الرأفةِ فتحا مِصْراعيْه، والله بِكَرَمِهِ يُنْعمُ على الرعية، بمدِّ البقاء لهما مُنْعَمَيْنِ، كالسِّماكَيْن – في النَّبَاهَةِ – أو المِرْزَمَيْن**"[17]. والأسدُ نجمٌ في السماء له من

النجوم ذراعان، وقد شبّههما في الرفعة واتّصالهما بالسلطان بذراعي الأسد، كما شبّههما في إثارة الرحمة والحنان في قلب السلطان بباب يُفتح - بأيديهما - مصراعاه. والسِّماكان: رجلا الأسد، وهما نجمان نيّران، والمرزمان: نجمان تصْحَبُهما الشِّعْريان[18].

وفي نهاية الرسالة يصرّح بالباعث على كتابتها، فقد كان عازماً على الإمساك عن الكلام كيلا يتعرّض للنقد، ويسيء الأدب في مخاطبة جنابهما، لكنّ مشورة أبي فلان، وليّ الأستاذين الذي يوثق بعقله ودينه، ولم يُغَطِّ البادي بسدينه (أي لم يستر ما بدا من سوءتِهِ وعَيْبه، والسدين ثوب من كتان، يعني: أن صاحبه ناصح أمين: ظاهره كباطنه صفاء ونقاء) - هذه المشورة هي التي حرّكته إلى الكتابة، وهي تجعله شريكاً له في الغلط، ولا يظهر لنا اسم ذلك الولي الذي أشار عليه بالكتابة.

ويعتبر أبو العلاء نفسه قد أساء الأدب ثلاث مرات، ويعقّب على ذلك بقوله: "**والتثليثُ مَذْهَبُ المسيحية، فإنْ أتيتُ بالتربيع، فما أجدرني ببلوغ التَّسْبيع**"[19]. والتسبيع[20] "مذهب الدولة الفاطمية التي يتبعها المرداسيون آنذاك، والتسبيع غسل الإناء سبعاً؛ أي رحض كلّ ما أدّت إليه هذه الرسالة من ضروب الإساءة"[21]، وقد ذكرنا أن مشيري شبل الدولة كانا نصرانيين، ولهذا فقد ذكر التثليث، وإنْ تمادى بإساءاته وبلغ التربيع، فقد أصبح جديراً ببلوغ التسبيع، أي بالغسل من إساءاته لهذين الوزيرين.

هذا ما تطالعنا به رسالة الهناء في ظاهرها، تهنئة من أبي العلاء لمشيري شبل الدولة، فهلْ من قراءةٍ أخرى؟!

المفارقة في رسالة الهناء

تنهض هذه القراءة على مجموع المفارقات والإلغازات والتوريات التي تزخر بها الرسالة، بما تنطوي هذه كلها على سخرية وتهكم يحملنا على فهم جديد للرسالة والوصول إلى معنى آخر مستتر، غير باد بالنظرة الأولى العجلى، وأبو العلاء يقول: "**والحقّ يَضِح لِمَنْ وَخاه**"[22]. فتوخي المعنى السليم الذي

أراد أبو العلاء إيصاله من خلال هذه الرسالة يفترض علينا رؤية ثاقبة تطالع ما بين السطور، ولا تقبل ما يبدو في الظاهر، إنّه يجعل المخاطب على جانب كبير من المسؤولية حين يشركه في ضرورة الوصول للمعنى الباطن المراد من خلال حل شفرات النص، والوقوف على العلامات والإشارات المبثوثة فيه وتقصّي دلالاتها، فالمخاطب: "مُطالب بأنْ يفقه السياق؛ ويقف على الدور الذي يلعبه في إنتاج المنطوقات المفارقية وفهمها"[23]. فكما أن المفارقة لعبة ذهنية تستلزم قدرة عقلية كبيرة من جانب المبدع، "فإن حلّ شفرة المفارقة يستلزم مهارة خاصة لفهم العلامة marker"[24].

إن هناك الكثير من الإشارات والعلامات التي زوّدنا بها أبو العلاء في ثنايا رسالته تشدّ الانتباه وتحفّز الذهن على ضرورة عدم القبول بما يبدو منها، بل تحملنا على قراءتها قراءة مغايرة للمعنى السطحي الظاهر وشدّ الانتباه هذا يتأتّى من خلال الإحساس بالغرابة والتشكّك والوقوف على تعارضات غير مستساغة؛ فلا يجد القارئ مناصاً إلّا بالنظر في الدلالة الباطنية الأخرى المغايرة للدلالة الحرفية الظاهرة، فيعدل، عن هذه الأخيرة، لغيرها ليجد ما ينشده من استقرار نفسي تجاه النص يبدّد ما يشعر به من غرابة وغموض.

لقد جعل المعري اللغة في رسالته كما يقول Wayne C. Booth "يرتطم بعضها ببعض، بحيث لا يهدأ للقارئ بال إلّا بعد أن يصل إلى المعنى الذي يرتضيه ليستقر عنده"[25]، وهذا ما أسماه انكفست Enkvist بـ "قوة التوتر tension بين المعنى السطحي والمعنى المضاد له"[26].

إنّ ما يبدو في ظاهر الرسالة يتعارض مع معرفتنا بأبي العلاء أو مع ما هو سا ئد ومعتقد، فمعرفتنا بأبي العلاء ووعيه بذاته وشعوره بسبقه الزمني، ومعرفتنا بآرائه في الوضع السياسي في زمنه وانتقاده لما كان يجري من مصادرات للحريات الفكرية والإنسانية وظلم واضطهاد للرعية، معرفتنا هذه تُملي علينا ألّا نسلّم بظاهر ما يطالعنا في هذه الرسالة من احتقار للذات العلائية التي ما عهدناها إلّا وهي على وعي حادّ بتفرّدها وتميّزها، ومن تصوير مثالي للحال السياسي والاقتصادي الذي كان على النقيض ممّا في الرسالة. فأول ما يحملنا على قراءة

الرسالة قراءة قائمة على المفارقة هو ذلك "التشكّك في المظاهر، في الظواهر"[27]؛ فالبيانات التي طالعتنا بها الرسالة تناقض ما نعرفهُ تماماً عن أبي العلاء وعصره السياسي، وهذا ما عبَّر عنه كلينث بروكس، وهو أحد النقاد الجدد، "أنّ هناك تشابهاً بين المفارقة والنقيضة – Paradox – أي بينها وبين تلك البيانات أو بين نمط معين من البيانات يقف ضد المعتقد السائد أو الرأي المتلقى"[28]. ولعلّ كل مَنْ يَسْعَون لتعريف المفارقة، والوقوف على حدودها وعناصرها موضّحين مفهومها، يرون أن "الميزة الأساس في المفارقة تباين بين الحقيقية والمظهر"[29]. لقد كان أبو العلاء على جانب كبير من الذكاء والنشاط العقلي في رسالته باستخدامه المفارقة كأسلوب بلاغي اتّكأ عليه في بنائها؛ فالمفارقة "لعبة عقلية من أرقى أنواع النشاط العقلي وأكثرها تعقيداً، تستخدم لقتل العاطفية المفرطة والقضاء على المظهر الزائف، ولفضح التضخيم الفكري"[30].

وقد يحتجّ البعض بأنّ أبا العلاء لم يكن مُضْطَرّاً لهذه المصانعة والمجاملة، فقد كان ينتقد بصراحة، وآراؤه في الحكّام والأمراء والساسة كثيرة ممتدة في أشعاره، فما الداعي لاتّباع أسلوب المفارقة لكي يذمّ من خلال هذا المدح الكاذب؟

لن أكتف بقولي، في الردّ على مثل هذا التساؤل المشروع، بأنّ المفارقة أسلوب بلاغي جميل مُحَبّب إلى النفس يظهر البراعة في قول ما يريده الإنسان بخلاف ما يظهر، ففي هذا من التفنّن والإتقان ما فيه؛ فـ "الطاقة التعبيرية expressive power التي نشعر بها مع المفارقة، تنطلق من جعلهم المفارقة، أعظم إسهاماً في عملية الاتصال، من مجرد الفهم السلبي passive up take"[31]، إنّها تمدّ النص بروح التحدّي المعرفي، وتراهن على المتلقي بقدرته في حل شفراته التي تبدو أنها لا تحتاج إلى حلّ، ولكنها في واقع الأمر بحاجة إلى متلقٍّ من نوع خاص قادر على الإمساك بها للوصول بالنص لمرحلة الهدأة المعرفية، والانتهاء من فوضى الشعور بالغموض والغرابة والتناقض، إنّ فن المفارقة "يتحقق حين يقال الشيء دون أن يقال، وحين يكون القصد مفهوماً دون أن

يكون جلياً"[32]. لن أكتفي بذلك، بل سأجيب - كما صرّح المعري في متن رسالته - بقولي بأنّ أبا فلان (وليَّ الأستاذين) هو الذي حرّكه لهذا المدح الكاذب، فهو مضطرّ له، مكره عليه، يقول: "**وقدْ كنْتُ عَزَمْتُ على الإمساكِ حتى أشارَ بالقولِ وَليُّهُما أبو فلان، وهو ممَّن يُوْثَقُ بِعقْلِهِ وَدِيْنِه، ولم يُغَطِّ الباديّ بسدينِهِ**"[33].

لقد ركب المعري متن المفارقة كوسيلة مُنْجية له من هذا التورّط الذي وقع فيه؛ فأبو فلان (وليّ الأستاذين) هو أيضاً من رجال السياسة، والمعري لا يعدم حيلة، فقد ذمّ وانتقد من خلال المدح والتقريظ، وهذا يدل على فطنة عنده وحسن تدبير، فـ "المُفارقة هي طريقة لخداع الرقابة، . . .، تراوغ الرقابة بأنها تستخدم على السطح قول النظام السائد نفسه، بيد أنّها تحمل في طياتها قولاً مغايراً له"[34]، هذا فضلاً عن كونها "متنفساً لغوياً لمبدعها وقالباً يصبُّ فيه معاناته ويسخر من الواقع"[35]، لقد استخدم المعري كل الوسائل الممكنة من لغة وسياقات كإشارات تجعلنا نشعر بالمفارقة، فكانت أدواته وإستراتيجياته لإيصال حسّ المفارقة جمّة ذكيّة بحاجة إلى تأمّل وإعمال فكر؛ فالمفارقة "لعبة لغوية ماهرة وذكية بين طرفين: صانع المفارقة وقارئها"[36].

وكما هو معلوم، فإنّ للمفارقة أنماطاً عديدة، قد يندرج بعضها تحت بعض وتتداخل، وقد قام الدكتور خالد سليمان في بحثه الموسوم بـ (نظرية المفارقة) برد معظم هذه الأنواع لأنماط ثلاثة، هي: المفارقة اللفظية، والمفارقة الدرامية، والمفارقة الرومانسية، معرّفاً بها وعارضاً لأمثلة توضح كل نوع، منوّهاً إلى أنّ دراسته هذه تعتبر إطاراً نظرياً يؤسس لدراسات تطبيقية لاحقة على المفارقة. وهنا لا بد أن نعرّف بأهم أنماط المفارقة التي ارتكز عليها المعري في بناء رسالته، وهي:

المفارقة اللفظية: لقد كانت النمط الأساس الذي سخّره المعري لتحقيق هدفه، وتفسير ذلك غير صعب، فالمعري يجيد ركوب اللغة، واللعب بمفرداتها وتراكيبها وكناها وتورياتها، ولا حاجة بنا لإثبات ذلك، فأدبه يكشف من هو في اللغة، والمفارقة اللفظية التي يعتبرها ميويك المفارقة الهادفة هي "التي تكون

وسيلتها اللغة، . . . ، ففي المفارقة الهادفة يقول صاحب المفارقة شيئاً من أجل أن يرفض على أنه زائف، مُساء استعماله، من جانب واحد. . . "[37].

ويذكر ميويك أسلوبين للمفارقة اللفظية قد وردا عند المعري بشكل واضح، هما أسلوب الإبراز، وأسلوب الإغراق أو النقش الغائر، فأما الإبراز فـ "إن أبسط أمثلة (الإبراز)، في المفارقة اللفظية المديح بدل الذم، مثل عبارة "التهاني" التي نقولها في حق أخرق تسبب في فعله مؤذية"[38]. وهذا النمط واضح في رسالة الهناء يكاد ينتظم معظم ما ورد فيها من مفارقة. وأمّا أسلوب النقش الغائر فـ "يقوم على تخفيف القول بدلاً من المبالغة فيه، وكثيراً ما يتداخل هذا النمط من المفارقة "بالمفارقة السقراطية"، أو "مفارقة الاستخفاف بالذات" "[39]. وهذا واضح أيضاً نشير إليه في حينه خلال المقاربة النصية.

ولا غرو أن تحظى المفارقة اللفظية عند المعري بالنصيب الأكبر؛ فهي تبدو "كالقاسم المشترك بين جميع من كتبوا عن المفارقة وأشكالها، فهي الشكل الأبرز والأشهر من أشكال المفارقة"[40]، هذا بالإضافة إلى أنه "مما لا جدال فيه، أن الكاتب الذي تكمن موهبته في الصياغة اللفظية، فإن أنماط المفارقة عنده ستكون في غالبيتها من أنماط المفارقة اللفظية المجردة"[41]، ولا أجدر من المعري في ذلك؛ فقد أوتي حسّاً مفارقاً لوعيه الشديد بذاته وبما حوله، مقروناً بلغة مراوغة تقول ما لا تظهر، فالمفارقة اللفظية "نمطٌ كلامي، أو طريقة من طرائق التعبير يكون المعنى المقصود فيها مناقضاً أو مخالفاً للمعنى الظاهر"[42]، إنّها "انقلاب في الدلالة"[43].

ويمكن الإشارة إلى نوع آخر من المفارقة اللفظية هي المفارقة الملحوظة التي يمكن أن تكون مفارقة القِياس شكلاً من أشكالها، وتعني "يعرض صاحب المفارقة شيئاً يتصف بالمفارقة – موقفاً، سلسلة أحداث، شخصية، عقيدة إلخ – مما يوجد أو يجب أنْ يُرى على أنّه يوجد مستقلاً عن العرض"[44]. ولكن هذا العرض للمفارقة "يتضمن عادةً قدرات لفظية مشابهة، . . . ، ولا تغدو حقيقية إلا من خلال عرضها، فكلما كان العرض بارعاً ازداد وضوح موقف المفارقة (الملحوظ)"[45].

المفارقة الدرامية: ترتبط هذه المفارقة بالمسرح، وتتحقق من خلال "وعي الجمهور بالمصير المجهول والمحزن الذي ستؤول إليه الشخصيات من حيث لا تعلم هي بمصيرها فتسقط ضحية للمفارقات"[46]، ويذكر خالد سليمان نقلاً عن "كونوب ثروول": "أنّ التناقض بين الإنسان، بآماله ومخاوفه وأعماله، وبين القدر العنيد الذي يحيط به، يوفر مجالاً واسعاً للكشف عن هذا النمط من المفارقة"[47]، ويسوق الباحث ثلاثة عوامل لهذا النوع من المفارقة ينقلها عن (D.H. Green) نلخصها بالآتي:

1 - توفر توتر في العمل ناجم عن وضع شخصية تتسم بالغفلة مقابل قوة أخرى قد تكون شخصية أو غيرها.

2 - يجب أن تكون الشخصية الأولى (الضعيفة الغافلة) جاهلة بحقيقة الظروف التي تحيط بها.

3 - يكون المشاهدون على وعي تام بالوضع الحقيقي للشخصية الغافلة وما سبّب الإخفاق لها[48].

وباعتبار هذه العوامل فإنّ (D.H. Green) يعرفها بأنها "لبّ التناقض الذي يستشعره المشاهد، في مقابل جهل الشخصية الغافلة في العمل الدرامي، وتصرّفها بما يتوافق وهذا الجهل"[49]. أي أنّ هناك تضاداً بين ما يعلمه الشخوص وما يعلمه الجمهور، فيخالط مشاعر الجمهور نحو الشخوص شيءٌ من الخوف والترقب والتعاطف[50].

مفارقة الأحداث: وهي انقلاب يحدث مع مرور الزمن، يكون وراء هذا الانقلاب قوة خارقة أو قدرية، ساخرة، مزاجية، معادية أو غير مبالية[51]. ويأتي هذا النوع من المفارقة متداخلاً مع المفارقة الدرامية، "وقد فطن "ميويك" إلى هذا التداخل، وحاول أن يفرق بين النوعين من خلال مثال يتلخص في المدرس الذي قام بترسيب طالب في امتحان ما، في الوقت الذي كان فيه هذا الطالب قد ظلّ يصرح، بيقين تام، أنه أدى امتحاناً ممتازاً، وأنه سينجح في هذا الامتحان بدون شك. فالحالة هنا تمثل حالة مفارقة، وبالنسبة إلى الآخرين، فإنه لا يوجد

شيء من المفارقة إلا بعد أن تظهر نتيجة هذا الطالب. وعلى هذا الأساس يتم التفريق بين المفارقة الدرامية ومفارقة الحدث أو الأحداث. فمفارقة الحدث تكتمل بظهور خيبة أمل الضحية، وهو هنا الطالب، بينما المفارقة الدرامية موجودة قبل ظهور النتيجة، فالمدرس على علم بها، والضحية (الطالب) يتصرف بما يتناقض وحقيقة الوضع الذي ظلّ يجهله حتى ظهور النتيجة "[52]. إنّ مفارقة الحدث "تتسم ببناء درامي واضح، ومثلها المعروف إغراق ضحية بمخاوف معينة، أو آمال أو توقعات بحيث يتصرف على أساسها ويتخذ خطوات ليتجنّب شرّاً متوقعاً أو يفيد من خطر منتظر، لكن أفعاله لا تؤدي إلّا إلى حصره في سلسلة من الأسباب تؤدي به إلى سقوطه المحتوم"[53].

هذه أهمّ أنماط المفارقة التي توافرت في رسالة "الهناء"، والتي كانت المفارقة اللفظية بأسلوبيها أشهرها.

ولعلّه من المفيد أن نعرض السياق السياسي الذي قيلت فيه رسالة الهناء كون الرسالة موجّهة لشخصيات سياسية، وتسلّط الضوء على كثير من النواحي الاقتصادية في ذلك الوقت. فـ "مثلما ترتبط المفارقة بالسياق اللغوي، فإنها أيضاً وثيقة الاتصال بالمقام الاجتماعي المنجب لها"[54]. وقد بسطت الدكتورة عائشة عبد الرحمن السياق السياسي والاجتماعي والاقتصادي والديني والأدبي لعصر أبي العلاء في كتابها "الغفران لأبي العلاء المعري"[55]، وعصر الغفران هو عصر رسالة الهناء، وحين تصل حلب في حديثها عن الجانب السياسي تقول: "أمّا في "حلب" نفسها - وهي حاضرة الإقليم الذي تقع فيه معرة النعمان، . . . ، فقد كتب عليها في ذلك العهد أن تطوي الصفحات الغراء التي كتبها "سيف الدولة" بجهاده وبطولته، وتضع بعدها صفحات بشعة سوداً، مكتوبة بالتخاذل والهزيمة، والتمزق، واستجداء المعونة من الروم، عدو العرب الذي أمضى "سيف الدولة" حياته يجاهدهم ويدفعهم عن مملكة العرب والإسلام"[56]، وبعد أن تسوق الأحداث السياسية السيئة في ذلك الوقت تعلّق متسائلة: "هل ترى هذه الحالة المظلمة تفسر لنا لِمَ جعل أُخراه حراماً على رجال السياسة والحكم، لم يدخلها منهم واحد؟، ثم هل ترانا نفهم، لِمَ اختار

"أبو العلاء" لموقف الهول من يوم الحشر، الجبابرة من الملوك، وذوات التيجان وأبناء الأكاسرة؟ "[57].

لقد حَفِلَ عصرُ أبي العلاء بأحداث سياسية كبيرة "فانقسام الدولة العباسية – بضعف الخلفاء وقوة الطامعين – إلى دول ودويلات لا ترتبط ببغداد أصلاً، . . . ، قد بلغ غايته في عهد أبي العلاء، من تمزيق الوحدة، وضياع القوة، وتخريب العمران، وطمع الروم في الثغور، حتى غدت رقعة الدولة بسببه مسرحاً لفتن ومؤامرات وحروب لا تكاد تنقطع، بين حكام هذه الدول والدويلات، أو بينهم وبين الخارجين عليهم من أهليهم وذويهم، أو بينهم وبين الروم في الشام والجزيرة؛ ممّا آل بتلك الدول منذ منتصف القرن الرابع إلى التحلل والانهيار، . . . ، وحسبك شاهداً على ذلك ما صارت إليه دولة حلب، مسقط رأس أبي العلاء، . . . ، أصبحت يتجاذب ولاءها والسيطرة عليها قوى الروم في الشمال، والفاطميين في الجنوب، والعباسيين في الشرق، والأعراب فيما حولها، فضلاً عن القوة المتصارعة في داخلها، فلا تخلص لواحد حتى ينتزعها منه آخر، أو ينغّصها عليه. هي اليوم للفاطميين . . وغداً لمواليهم . . . وبعده للفاطميين. . . ثم للمرداسيين، . . . ، حتى بلغ مَنْ تعاقبوا عليها من الحكام والولاة في تلك الفترة عشرين، ومن الوزراء والقضاة أكثر "[58].

وفي ظل هذه الحياة السياسية المظلمة ليس إلّا أن نتصور ما أدّى إليه ذلك: "بالنسبة إلى الحكام ومن ينتمون إليهم: من مكر وخداع، وفتن ومؤامرات وتواثب وتنافس، وإغارات وحروب، وتسلط وظلم واستحواذ على المال وانتهاز الفرصة قبل فواتها . . . وبالنسبة إلى المحكومين: من قلق واضطراب، وخراب ودمار، وفقدان للأمن والولاء والانتماء، فضلاً عما كانوا يتعرضون له دائماً من ألوان الضرائب والخيانات، وأحياناً من المصادرات والادعاءات "[59]. يكفي هذا لنعرف السياق السياسي الذي كانت تعيشه حلب والمنطقة بأسرها في تلك الفترة؛ لأنّ الرسالة – كما ذكرنا سابقاً – موجّهة لشخصيات سياسية (مشيري أو وزيري شبل الدولة)، ولقد كان أبو العلاء يكره

في المعرة "تعرّضها لهذه الأحداث السياسية التي تجعلها كالكرة يتقاذفها الفاطميون والأعراب والروم"[60].

وحديثه عن جور الحكّام وسفههم وظلمهم للرعية كثيرٌ مُنْبَثٌّ في شعره ونثره على السواء، فهو متألّمٌ أشد الألم لما شهده من صراعٍ دام، وضعف واضطراب وفوضى، "وبديهي أن يؤثر ذلك في أدبه وأن تشيع روح السخرية في هذا الأدب"[61]. فكانت المفارقة الإستراتيجية الرائجة في أدبه كونها تتيح له قول ما يريد، وتوفر له الغطاء الأمني اللازم. كما أن اللجوء للمفارقة يكون أحياناً حينما "تفشل كل وسائل الإقناع، وتستهلك الحجج، ويخفق النقد الموضوعي؛ فعندئذ تظل المفارقة هي الطريق الوحيد المفتوح أمام الاختيار"[62]. فالمفارقة تعدّ "ثورة داخلية بأسلوب غير مباشر لإظهار المثالب في المجتمع لتقويمه وتهذيبه وإصلاحه"[63]، كما أنَّها "بنية ثرية ممتدة لإظهار الفساد والظلم الواقع في المجتمع من الفئات المختلفة"[64]. ومن هنا نبدأ بقراءتنا الجديدة في متن الرسالة.

مقاربة نصيّة

يستفتح أبو العلاء رسالته بموضوعها وهو التهنئة، ثم لا يلبث أنْ يعتذر عن تصدّره للتهنئة وتصدّيه لها؛ إذْ إنّ "**التهنئةُ يجبُ أنْ تقعَ بين الأكْفاء لا على مِقْدار المِقَة والصَّفاء**"[65]، وفي هذا مفارقةٌ كبيرةٌ؛ إذ كيف لا تكون التهنئة بمقدار الحبّ والمودة والإخلاص والصفاء!؟ فهذا اختلالٌ للمقاييس، الذي هو انعكاسٌ لاختلال الوضع واعتلالِهِ، كما أنّه إلغازٌ من طرفٍ خفيٍّ بالوضع الطبقي القائم في المجتمع آنذاك، بل إنّ إصرار أبي العلاء وإطنابه في اعتذاره عن تعرّضه للتهنئة لأنه غيرُ كفءٍ للوزيرين، يوضّح مدى الهوة السحيقة بين الشعب في المجتمع العباسي، وبين الطبقة الحاكمة.

ويتّضح ما نذهب إليه من مراد أبي العلاء في المثالين القصصيين اللذين ضربهما لنفسه في تعرّضه لمدحهما وهو غير أهل لذلك، إذ نلحظ في القصتين ما يأتي:

1 – أنهما من عالم الحيوان الذي تحكمه شريعة الغاب (البقاء للأقوى)؛ أي منطق القوة.

2 – الشخوص في القصة بُنيت في اختيارها على تفاوتٍ كبير (أسد يقابله فأر)، (جارح يقابله عصفور).

3 – القصتان بُنيتا على مبدأ "هل جزاء الإحسان إلّا القتل"؛ فالجزاء المتوقع لكل من الفأر والعصفور هو الإحسان إليهما، لكن إيقاع الشر/القتل بهما ينضوي تحت ما يسمّى بمبدأ التضاد العالي؛ أي "الإشارة إلى الفرق بين ما ينتظر حدوثه وبين ما يحدث فعلاً. وكلما ازداد هذا الفرق كبرت المفارقة"[66].

وهنا لا بد أن نتساءل هل شريعة الغاب تنطبق علينا وتحكمنا، هل منطقها ينسحب علينا نحن بني البشر، إنّ المقايسة هنا تشيء ببعد تهكّمي كبير، بالإضافة إلى الإلغاز الذي ينجلي لنا ما إنْ نظرنا إلى منطق القوة الذي كان فيه (هل جزاء الإحسان إلّا القتل)، من خلال جزاء الفأر والعصفور. وشتّان ما بين المنطقين، منطق الغاب ومنطق البشر، لكن الواقع سحق الفرق، فاستوت الحال، والعيش الآن في ظل شريعة غاب.

من الممكن هنا أن نشير إلى المقايسة على أنها مفارقة ملحوظة يطلق عليها مفارقة بالقياس؛ كون المقايسة شيئاً ملحوظاً يقع ضمن دائرة العرض لا اللفظ، وإن اعتمد على القدرات اللفظية للكاتب. والمفارقة الملحوظة "أشدُّ قرباً من المفارقة الهادفة إلى الصفة الدرامية أو المسرحية"[67]؛ ولذا تحققت في القصتين بصورة جلية، إلى جانب كون القصتين تُحققان المفارقة الدرامية ومفارقة الحدث كما سيأتي الحديث عن ذلك لاحقاً.

وفي القصتين أيضاً بعض الإشارات التي يمكن أن يوقف عندها؛ كونها وسائل مهمة زودنا بها أبو العلاء لمساعدتنا على فهم المراد من رسالته، "يوصل صاحب المفارقة رسالته الحقيقية إلى جمهوره؛ بمعنى أنه يزودهم بوسيلة بلوغها"[68]. ومن هذه الإشارات:

1 – قول الفأر وهو يصيح بين مخالب الضَّيْوَن: "**ما ذَنْبي! أُوْكَلُ في جِوارِ الجبّارِ: أُسامةَ!**"[69]، إنّ كلمة "جوار" تعني أن الفأر في حماية الأسد وفي جواره، ولا يستطيع أحد أن يتعدّى عليه، لكنّ ما حدث يعني أن عهد الجوار انتقض، فلا أمن ولا أمان. وقوله "ما ذنبي!" توحي بأنّه عوقب على عمل خير وإحسان (مدح الأسد)، إنّ تساؤل الفأر "ما ذنبي" يوحي "بقوة اللاوعي المطمئن لدى الضحية"[70]، وهذه من العوامل اللازمة في المفارقة الدرامية، كما أنّ وعي الجمهور بما سينال الفأر من عقاب على إحسانه كان واضحاً من خلال المقدمة التي أوضح فيها المعري سوء الجزاء الذي يمكن أن يناله كما نال شخوص القصتين. وفي هذا ما فيه من غمز خفي بإمكانية معاقبة أي فرد في المجتمع بغير ذنب أو سبب، فالعقاب بالمجان، والذنوب لا يُعرف لها زمان أو مكان. ومعاقبة فأر من قبل أسد على فعل خير هو مفارقة هادفة، كما يسمّيها د. سي. ميويك؛ "أي كما لو أنَّ أحداً قد تعمد إحداث تنافر صارخ"[71]. هذا التنافر يدفعنا دفعاً لعدم الوثوق بما يقوله ظاهر النصّ، بل يحدونا بشدة لاستنطاقه مرّة أخرى لنصل للمغزى المراد من ذلك التناقض السافر.

2 – "**فَأَومأَ البازي المُتَجبّر، وهو عن اخْتطافِ البَائِسِ مُتَكبّر، إلى باشقٍ بالحَضْرةِ، فأكله مُعْتاماً، وترك أفراخه أَيتاماً**"[72].

لقد نعت البازي بالمتجبّر والمتكبّر، بينما تحدّث عن العصفور بقوله (البائس)، و (أفراخه أيتاماً)، وهنا نتساءل لِمَ كل هذا الإشفاق من أبي العلاء على العصفور إنْ كان يؤمن بأنه غيرُ أهل لأنْ يمثل مادحاً أمام عظيم الطيور، وبأنه يستحق مثل هذا الجزاء على إحسانه؟!، ثمّ لِمَ ينعت البازي وهو من حاشية عظيم الطيور بالمتجبّر؟! هذا، ولنلحظ المقارنة غير المباشرة بين أفراخ عظيم الطيور وأفراخ العصفور:

أفراخ عظيم الطيور	أفراخ العصفور
↓	↓
غذاء (الفُور: الظباء) + أب (الجارح)	لا شيء عندها + أيتام

إن عبارة مثل عبارة (وترك أفراخه أيتاماً) فيها من الإشفاق لحال العصفور ما يُحفّز الذهن بضرورة إعادة النظر في القصتين: لجانب منْ تقف القصتان، أهما لجانب الوزيرين المشيرين/ الأسد والجارح، أمْ لجانب أبي العلاء/ الفأر والعصفور؟ من الواضح أنها تدين الأسد والجارح، من هنا نتساءل: هل حقّاً كان أبو العلاء يؤمن في رسالته بما يقوله، أم أنه يورّي ويلغز لاختلال المقاييس التي هي صدى لاختلال الأوضاع وانعكاسها في عصره، هذا بالإضافة إلى أنّ الطبقية في المجتمع تتنافى والمبدأ الذي يؤمن به أبو العلاء من وحدة البشر وتساويهم.

هنا بوسعنا أن ننظر للقصتين على أنهما تحققان نمط المفارقة الدرامية التي تتضمن مفارقة الأحداث أيضاً؛ فالشخوص في القصتين (الفأر والعصفور) يمثلان الشخصية الغافلة الجاهلة المطمئنة، والجمهور على وعي بما سينالهما من عقوبة لا يستحقانها، وبإنزال هذه العقوبة بهما تتحقق مفارقة الحدث. لقد جعلنا المعري بقصتيه نقيم "مسرحاً ذهنياً نقوم فيه نحن بدور المراقِب غير المراقَب"[73]. إنّ التداخل بين المفارقة الدرامية ومفارقة الحدث كان واضحاً للغاية، فالشخوص وجهلها بما سيحدث لها، والتوتر الواضح في القصتين، ووعي الجمهور بمصير الشخوص يحقق المفارقة الدرامية، وإيقاع العقوبة بالفأر والعصفور يحقق مفارقة الحدث. وهنا ملحظ مهم هو أنّ "الحدث في حد ذاته، بعيداً أو منفصلاً عن عناصر أخرى متصلة به، مثل صانعه أو ضحيته أو الزمن الذي يحدث فيه، وكذلك المكان، لا يستطيع تشكيل مفارقة"[74]، فأكل القط للفأر لا يشكّل مفارقة، إلّا لكونه ارتبط بكل العناصر الحاضرة في القصة؛ فكان أكله مفارقةً تستدعي الوقوف عليها. لقد وظّف المعري قصتيه "توظيفاً فنياً جيداً لإثارة جوهر الحقائق الاجتماعية المحدودة"[75] عن طريق المفارقة، ففضح بقصتيه الموازين والمعايير التي يقوم عليها مجتمعه وعرّى اختلالها وجورها، وهذا جوهر عمل المفارقة "تفضح لتكشف وتضيء، وتهدم لتبني، وتُضحك لتُبكي، وتهمس لتصرخ"[76].

ولمّا لم يكن أبو العلاء من أقران الأستاذين ونظرائهم، فقد صرّح بأقرانه

بقوله: "**وأمّا أقْراني فأولئك حَمَلَةُ عِصِيّ، يجلسون بالمكان القَصِيِّ. فإن أخطأتُ ذلك فَقِرْني ضُلّ بنُ ضُلّ أو هَيُّ بن بيٍّ، وكلاهما ليْسَ بِشَيٍّ**"[77]. إنّه يُعدّ نفسه نكرة، وأيُّ نكرة! حين يقول "ضُلُّ بن ضلّ" أو "هي بن بيّ". إنّ إنكاره الشديد هذا لذاته ينطوي على إلغاز سرعان ما يتكشّف إذا ما ربطنا ذلك بعدم ذكره لاسمي الأستاذين وألقابهما؛ فعدم ذكر الألقاب له دوره في تجاهلهم وإنكارهم، فهم النكرات الذين عناهم بقوله "ضلّ بن ضُلّ، وهي بن بيّ" لا هو، إذ هو المعروف في عصره، المشهود بذكره.

لا يمكن أن يُفهم إنكار المعري الشديد لذاته إلّا على متن المفارقة وهذا ما أسماه د. سي. ميويك بـ "التواضع الزائف أو مفارقة الاستخفاف بالذات"[78]. فالمعري معروف النسب، عظيم الذكر، يقول القفطي: "سار إليه الطلبة من الآفاق، . . .، وكاتبه العلماء والوزراء والفضلاء وأهل الأقدار، . . .، وكان نادرة زمانه"[79] ويقول الحموي: "كان غزير الفضل، شائع الذكر، وافر العلم، . . .، شهرته تغني عن صفته، وفضله ينطق بسجيته"[80]. كما يقول عن نسبه: "وكان في آبائه وأعمامه ومَنْ تقدّمه من أهله وتأخّر عنه من ولد أبيه ونسله، فضلاء وقضاة وشعراء"[81]. ولا أدلّ على فضله وشهرته من أن نعرف بأنه "لما مات أبو العلاء أنشد على قبره بعد موته أربعةٌ وثمانون شاعراً مراثي، من جملتها أبيات لعلي بن الهمام، من قصيدة طويلة، منها:

إنْ كنتَ لم تُرِق الدماءَ زهادةً فلقد أرَقْتَ اليومَ من جفني دَمَا
سَيّرْتَ ذكراً في البلاد كأنّه مِسْكٌ مسامِعَها يُضَمّخُ أو فما"[82]

ونصل هذا بالذي سبقه فنقول: لعلّه في إسرافه الشديد في اعتذاره عن مثوله مادحاً للأستاذين، يعتذرُ عمّا اضطرّ إليه من مصانعة ومداراة، كما أنّ إصراره على أنّه ليس كفئاً في تلك المكاتبة وذلك المدح، يشير إلى أنّ الممدوحين ليسا بأهلٍ لذلك المدح، ولا يستحقان الإطراء والثناء، فالأمرُ في ذهن أبي العلاء عكسيّ. فـ "العلاقة بين المظهر والحقيقة ليست علاقة تشابه أو لا تشابه أو تعادل، بل إنها - كما يقول (شفالييه) - تضاد (أو تعارض أو تناقض أو تباين أو تنافر أو عدم اتساق)"[83].

ويتّخذ أبو العلاء النحو وسيلة فنية في توريّاته وإلغازاته، فهو يقول في مَعْرِض نفيه أن يكون قصد المادح للأستاذين بِـ "الحرّين" معتمد مَنْ أثنى: "**الحرّان اللذان هما حُرّ وَأبيّ؛ لأنَّ خفيفَ الاسْمَين غلب الثقيلَ، وكم لَفْظٍ لا يحسُنُ وَإنْ قِيل**" (84).

(خفيف الاسمين غلب الثقيل) عبارة نحوية ساقها أبو العلاء ليشي من خلالها بما أراد من كونه الثقيل الذي غُلب، وغيره الخفيفون الذين غَلبوا.

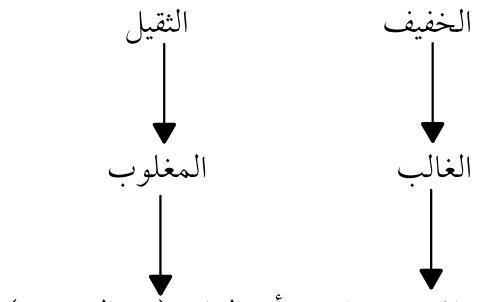

ويتبع المعري هذه العبارة بعبارة "وكم لفظٍ لا يُحسن وإنْ قيل"، ليصرّح بمغزاه الخفيّ، وهو وإنْ كان الثقيل المغلوب على أمره الذي لم يشغل منصباً في هذه الدنيا أو مركزاً، فهذا لا ينفي كونه الثقيل بما في هذه الكلمة من دلالات وإيحاءات. وكذا فإن كان غيره الخفيف الغالب المُقرَّظ المَطري الذي شغل المراكز والمناصب، فهذا لا يعني أنّه الحَسَن أو الأحسن، فكم ألفاظٍ شائعة مشهورة تُقال وتُتداول، وهي غير حسنة بل مرفوضة ممجوجة.

لفظ مقول غير حسن / حاكم أو وزير

لفظ غير مقول حسن / أبو العلاء

فلا عجب - إذن - من أن يكون الخفيف هو الغالب، والثقيل هو المغلوب، فهذه إحدى المفارقات التي اعتاد مجتمع أبي العلاء عليها. من هنا نرى كيف أنّ المفارقة هي "لغة اتصال سري بين الكاتب والقارئ. وهي قد تكون جملة، وقد تشمل العمل الأدبي كله" (85). لم يغب عن ذهن أبي العلاء وجوب إمداد قارئه بما يلزمه من تلميحات تأخذ بيده وتعينه على اكتشاف

المستوى الكامن للكلام، وهذا ما أسمته نبيلة إبراهيم بـ "الخيط"، وجعلته شرطاً من شروط وجود المفارقة، فإذا "لم يمد المستوى السطحي للكلام القارئ بالخيط الذي يعينه على اكتشاف المستوى الكامن الذي يقف على بعد من المستوى الأول، فإنه لن تكون هناك مفارقة، . . .، وهذا يعني، من ناحية أخرى، أن القارئ شريك أساسي في صنع المفارقة "[86].

ويتّسع الحسّ بالمفارقة حينما يتّسع التقريظ والإطراء بالأستاذين، فها هما ربيعان يسبغان على الأنام ضروب الحُسن والخصب والإنعام: "**حَرَسَهما اللهُ شَهْري ربيعٍ، وما عَنيتُ شَهْرين، يُعرفان في السنةِ بِهلالينْ، ولكنْ أردتُ نَيْسانَ وأَخاه، والحقّ يَضِحُ لِمنْ وَخاه، فإنّهما رَبيعا عام، يجيئانِ البَشَرَ بالإنعام، الأول يُجْني الثمارَ، والآخرُ يُسني الأزهارَ**"[87]، ثم لا يلبث أبو العلاء أنْ يتمنّى على لسان الجبال أن يسقط الله عليها لُجيناً (فضة) في الأشهبين (وهما عامان أبيضان وما بينهما خضرة، أي مجدين) بدلَ المطر والثلج؛ ليفضَّه السلطان على الأولياء والأشقياء، لا بل يبتهلُ الدرب الضيّق إلى الله أن يزيده اتّساعاً، وأن تكون الأحجار الخشنة كأنّها رِقّ نَعام (جلد)، والأكمة خواناً وُضِعَ للطعام يُصيبُ منه الساغب، وهو مُريحٌ أو لاغب، وفي موضع آخر يتمنّى أن يقدم الأستاذ أبو فلان من حضرة الملك ذي التاج بديباج، ليفرّقه شبل الدولة على قبيلة سُبيعة.

وهنا نتساءل كيف يستوي وجود الربيعين (خضرة وخصب ونماء وإنعام)، ووجود الحلم بالمال والثياب والطعام (فقراء وأشقياء)؟ بل كيف يستوي لدينا أن يكون الربيع، ويتمنى أبو العلاء أن تتحول الأكمة إلى خوان طعام؟ إنّ هذه الأمنيات والأحلام لا تكون ممّن ينعم بربيع، بل ممّن ينعم بأزمنة شهُب. إنّ أبا العلاء بأحلامه وأمانيه هذه يُدين عصره "وهل هناك إدانة لعصر أكثر وقعاً من أنْ يتحول الخير إلى مجرد أمانٍ وأوهام"[88].

هذا، وحسبنا ما في قوله: " . . . . **يَصيرُ كُلّه من ديباجٍ، . . . ، هديةً للسُلطانِ المكرّم شبلِ الدولةِ أعزّ اللهُ نصرَهُ يُفرّقُه في أفناءِ سُبَيْعةً، ويَأخذُ به على القومِ البيعةَ**"[89] من تهكّم لاذع؛ إذ جعل ما يُفَرقه من ديباج على قبيلة بني سُبيعة كالرشوة التي يأخذ بها البيعة منهم[90]، كما ذكر كامل كيلاني ذلك في هامش

الرسالة، وتظهر الصورة بشكلها التهكّمي اللاذع عند النظر لـِ "بِه"، فالديباج بما يوحي به من مال حُرم منه الشعب، ميزانه ومعياره في إعطاء البيعة للسلطان، فهم يسلّمون لأيّ حاكم يؤمّنُ لهم حاجتهم من مالٍ وغيره؛ لأنهم في ضيقٍ تماماً كضيق اللصاب والحِرَجَة، وهذا يتنافى وحياة الربيع التي تكلَّم عليها أبو العلاء، بل يشي بخريفٍ مخيف؛ إذ يصبحُ المال والطعام والكسوة حلماً ما بعده حلم! إن "تلك التمنيات تعكس ما يرجوه أبو العلاء من خير للناس، يوزعه ولاة الأمر عليهم، كما تعكس، تهكماً وسخرية تتمثل في إشارته إلى أخذ البيعة عن طريق ما يوزعه على قبيلة بني سبيعة والأولياء"[91].

ثمّ إنّ مثل هذا التمني والحلم (مال، طعام، كسوة) بحضرة وزيرين في معرض مدح، يفضح مقصد أبي العلاء ويُجلّيه من كون البلاد تعيش حالة صعبة سيئة، كما يفضح الوزيرين (رجلي السياسة)، إذ كيف يستقيم مدحهما ووصفهما بالربيع والشعب يعيش حالة من الضنك والفقر، جعلت الناس تعيش حالة من الإفك الذي يتقد له الجمر (وخمد من الإفك الجمر). هذا قمّة الهزء، فما نحسب بعد هذا إلّا أنّ أبا العلاء برسالته هذه يعيش حالة الإفك التي يتقد لها الجمر.

وتتضافر كلمات الرسالة وتعابيرها لتجلّي مراد أبي العلاء، فها هو في مدحه للأستاذ أبي فلان يدعو له قائلاً: "**لا بَرِحَ في يدِ المملكةِ بِهِ سِوارٌ**"[92]، إنّ كلمة "سوار" تشي بذلك الوضع السياسي السّيئ، إذْ كانت الحكّام والأمراء ووزراؤهم يحاصرون الشعب بتسلطهم وسوء سياستهم، كالسوار إذْ يستديرُ على المعصم، خاصّة أنّ أبا شبل الدولة (صالح بن مرداس) كان "قد حاصر معرّة النعمان – موطن أبي العلاء – ونصب عليها المناجيق سنة 417هـ"[93]. لقد مزج المعري بدعائه هذا المفارقة اللغوية مع المفارقة الملحوظة وهي السياق السياسي؛ فكانت إشارة المفارقة هنا مزيجاً من كلتيهما، فكون السوار يستدير على المعصم ويطوقه فكذلك رجال السياسة يطوقون الشعب بسوءِ سياستهم، ويحاصرونه فكرياً واقتصادياً، ويصادرون حقه في الحرية، ويحيلنا قوله هذا على الحدث السياسي الكبير الذي مرت به المعرة، وهو محاصرة صالح بن مرداس لها، ونصب المناجيق عليها وتحتشد المفارقات اللغوية بكثرة في

الرسالة، ولا يخفى علينا أن لغة المفارقة تبرز في أوقات معينة لا ينفع معها إلّا أن تخاطب الحال بذلك الحس المفارقي، الذي يرقى على المجرد القول العادي، بل يشيع الإحساس المضيض بالألم، ويدعو إلى التمرد والتغيير، فهناك "بعض حقب تاريخية تولّد لغة المفارقة؛ فهذه اللغة وليدة موقف نفسي وعقلي وثقافي معيّن"[94]. كما أنه من الممكن النظر إلى لغة المفارقة على أنها "صورة من إيمان العصر المهزوز بكل القيم والحقائق"[95].

ويُتابع أبو العلاء حديثه عن فضل الأستاذ أبي فلان الساعي لمصلحة البلاد والعباد بقوله: "**إذْ كان خلّص أسيراً، أو جَبَر بعُرْفِه كسيراً، فكأنّما صنع صنيعاً، عمّر به أبناء الراكدة جميعاً**، لقوله تعالى: ﴿**مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا**﴾"[96]. فهذا الأستاذ بإحيائه نفساً من أسرٍ أو قتل يكون قد أحيا أهل الراكدة جميعاً، والآية الكريمة تشير أيضاً إلى أنّ مَنْ قتل نفساً فكأنّما قتل الناس جميعاً، وفي هذا من الإلغاز ما فيه، وإنْ بدا أنّ الوجه المراد هو الوجه الحسن؛ أي الإحياء، فهو غمز من طرفٍ خفيّ بما كان يجري من ظلم وقتل وفساد، وتلويح بعظيم العذاب لهذا الفعل الكبير.

وتبلغُ السخريةُ ذروتها عند حديثه عن المعجزات (المستحيلات) التي يمكن، إنْ جاز أن تقع معجزات، أن تحصل بفضل الأستاذ أبي فلان ويُمنه وبركته، من انشقاق البحر، ونضوب مائه، وعود أجاجه إلى مجاج، أو تسير السفينة على اليبس مضيئة، أو تَحملها الريح كحمل عرش بِلقيس وتظلّ، على الرغم من كل ذلك، سواكن اليم (من سمك وحيتان) ببركته راتعة، بالسلامة متمتّعة، تنسرب في الفلوات الرحبة كجماعات النعام المسرعة، أو كقطيع البقر الوحشيّ، حتى إذا قضى الأستاذ اللبانة، وآنس من النجح إبانة، عاد لمستقرّه الغمر، وخمد من الإفك الجمر.

إنّ في ذلك لسخرية واضحة وتهكّماً لاذعاً من جناب الممدوحين؛ فالمعجزات لا تقع، وكذا فإنّ الذي تحدّث عنه من أمر الأستاذين وفضلهما لن يقع، فالأحوال بحاجة إلى معجزات كي تتحسن، والأمور في سوء، والإصلاح

مُحال، لأن المعجزات لن تقع، فأبو العلاء يائس من التغيير لدرجة أنّه أصبح يتمنّى المستحيلات الممتنعات، ويستطردُ ساخراً حينما يقول: "**وليت ما يسقط علينا في الأشهبين، يصير - في الأقضية - من اللُجين، فَيُحمل إلى تلك الحضرةِ لِيَفُضّه السلطان الأشرف على الأولياء، ويكونُ سببَ سعادةِ الأشقياء**" [97]، إنّ ما يحلم به أبو العلاء، وتحلم به الرعية من إمطار السماء فضة بدلاً من الماء والبرد، وتوزيع ذلك على الأولياء والأشقياء ليسعدوا ضربٌ من المستحيل، وتغيير الحال محال، فهذا الفعل بحاجة إلى تغييرات إلهية، ومُعجزات ربانية، فالسوء مُطبق، والفقرُ ضاربُ الأطناب. وقد نقول كما تقول سيزا قاسم إنّ المفارقة هي "إستراتيجية الإحباط واللامبالاة وخيبة الأمل، ولكنها في الوقت نفسه تنطوي على جانبٍ إيجابي؛ فقد ننظر إليها على أنها سلاح هجومي فعّال. وهذا السلاح هو الضحك، لكنه ليس الضحك الذي يتولد عن الكوميديا، بل الضحك الذي يتولد عن التوتر الحاد، والضغط الذي لا بد أن ينفجر" [98].

وأبو العلاء يُوْسِعُ تَهكّمه بقوله: "يفضّه السلطان الأشرف على الأولياء..."، إنّ هذا أيضاً (توزيع السلطان الفضة على الفقراء والأولياء) ضربٌ من المستحيل، كما أنّ إمطار السماء فضةً ضربٌ من المستحيل.

هذا بالإضافة إلى أن الطبيعة أيضاً تقف إلى جانب الشعب حالمة متمنية، فهي تَحلُم بالفرج والتوسعة واللين واللطف، وأيّ سوءٍ بعد هذا ممكن أن يحدث حينما تشارك الطبيعة الإنسان ضيقه وألمه ومعاناته.

الطبيعة	ناطقة	تتمنى
الشجر	←	أن تتبدل أوراقه وأزهاره ديباجاً.
الجبال	←	أن يسقط عليها فضة.
الدرب الضيق	←	أن يزيد اتساعاً.
اللصاب والحِرَجة	←	أن تصير كفيْح السباسب
الأحجار الخشنة	←	أن تكون رقّ نعام
الأكمة	←	أن تكون خوان طعام

نعم، إنه العالم الخيالي المنشود في ذهن أبي العلاء الذي يقف على النقيض من العالم الواقعي المرفوض، ولعل ذلك يكون من أهداف المفارقة التي ربّما أدارت "ظهرها لعالمنا الواقعي وقلبته رأساً على عقب"[99].

وتمضي الرسالة في مفارقاتها وإلغازاتها وسخريتها، إلى قول المعرّي في نهاية رسالته: "**وليس بخافٍ عنّي أنّ سكوتي هُوَ المَتْجرُ، والكاذبُ مُسِيءٌ أوجَرُ**"[100]، إنّ هذه العبارة مُلْغزة، وتحتمل وجهين للتفسير، وجهاً قريباً غير مراد، ووجهاً بعيداً هو المراد، فأمّا القريب غير المُراد فهو أن أبا العلاء يؤثر الصمت والسكوت على الكلام والتعرّض للمدح والإطراء؛ لأنّه غير أهلٍ لمدح الأستاذين، إذ هو ليس من نظرائهما، فسكوته أربح له وأفضل؛ لأنه ربّما بتصدّيه لمدحهما يصبحُ جديراً بعقابٍ مثل عقاب الفأر والعصفور، وهنا قد يظنّ ظانّ أن أبا العلاء يُبالغ، فيُنكر حديثه ولا يصدقه، فيستدرك أبو العلاء ذلك ويُضيف (والكاذبُ مسيءٌ أوجر: خائف)، أنه ينفي عن نفسه الكذب في ذلك؛ لأنّ الكذاب يجمع إلى إساءته خوفه، فهو ليس بكاذبٍ أوجر، بل صادق كلّ الصدق.

أمّا الوجه البعيد المراد، فهو أنه كان يؤثر الصمت والسكوت على الكلام والمدح والتقريظ؛ لأنّه يرى أن الأستاذين ليسا بأهلٍ لمدحٍ أو ثناء، وإسرافهُ في الاعتذار عن مدحهما، هو اعتذارٌ عن إفراطه في المصانعةً والمداراة التي حرَّكه إليها (وليّ الأستاذين) أبو فلان الذي يوثق بعقله ودينه، هو يؤمن ويعرف أنّ سكوته متجرُه، لكنّه اضطّر إلى الكذب والمصانعة والمداراة، فأتبع عبارته الأولى بقوله (والكاذبُ مسيءٌ أوجر)، فهو في مديحه وتقريظه يكذب ويأفك، وهو كذبٌ مضطر إليه؛ لأنّه أوجر (خائف) يقول:

اصْدُقْ إلى أنْ تظنَّ الصِّدْقَ مَهْلكةً ... وعند ذلك فاقْعُدْ كاذباً، وقُم
فَالمَيْنُ مِيْتَةُ مُضْطَرٍّ ألَمَّ بِهَا ... والحَقُّ كالماءِ: يُخْفَى خيفَةَ السَّقَمِ[101]

ويقول في موطن آخر:

يقولُ لكَ العقلُ الذي بَيّنَ الهُدَى ... "إذا أنتَ لم تَدْرَأ عَدوّاً، فدارِهِ
وَقَبِّلْ يَدَ الجاني الذي لست واصلاً ... إلى قطعها، وانظرْ سُقُوطَ جِدَارِهِ[102]

ويقول :

أَمْسَى النِّفاقُ دُرُوعاً يُستَجَنُّ بها مِنَ الأَذَى ويُقَوِّي سَرْدَها الحَلِفُ[103]

ويقول :

على الذمّ بِتْنا مُجْمِعينَ وحالُنا مِنَ الرُّعْبِ حَالُ المجمعينَ على الشُّكْر[104]

ولأبي العلاء الكثير من الشعر في تسويغ الكذب الذي تدعو إليه الضرورة، ويتطلّبه السياق، فلم يعد "النفاق في ظل الخوف مسلكاً تأباه النفس ويندى له الجبين الحرّ، لقد أصبح النفاق - بفعل القهر - ملجأً يقي الإنسان المضطهد زوابع الحكم وأعاصير الحكّام"[105].

ويتخذ المعري النحوَ وسيلةً أو إشارة مفارقة توضّح مراده، فيعقب بعد تصريحه بسبب الكتابة للمشيرين، وهو تحريك أبي فلان له، بقوله: "وربّ لا يُحْتَملُ فيه التّحريك"[106]. فتعقيبه النحويّ هذا، لا وجه له هنا، إلّا أن يُحمل على تشبيه نفسه بـِ "ربَّ" التي، إن قُرئت بالتحريك، كان المعنى أنه يائسٌ من التغيير، فالحال بحاجة إلى معجزات كي تتغير. وإن قُرئت بالسكون، كان المعنى أنه عاجزٌ عن التحريك/ التغيير، فهو غير قادر على ردّ طلب رجل السياسة الذي أشار عليه بالكتابة فهو أوجر عاجز يائس، وفي الحالتين فإن اليأس والعجز يفضحان المقصود وهو أنه مضطرٌ لهذه المكاتبة التي كان ظاهرها يناقض باطنها، فكانت المفارقة الوسيلة المنجية من تورّطه هذا كونها توفر له الغطاء الأمني اللازم.

ويَعُدّ أبو العلاء في آخر رسالته أخطاءه ويحصيها، فتبلغ ثلاثة، فهو قد أساءَ الأدب ثلاث مرّات، بمخاطبة المشيرين ومكاتبتهما، والتثليث مذهب المسيحية، ولعلّ ذلك يكون شفيعاً له فلا يُعاقب على ما أتى من إساءة في المدح (مفارقة)، لكنّه إنْ تمادى وأتى بالإساءة الرابعة، فقد أصبح جديراً ببلوغ التسبيع. ولعلّ الوجه هنا في التسبيع ليس كما ذكرنا في عرض الرسالة (رحض ما في الرسالة من ضروب الإساءة)، بل رحض أبي العلاء من مكاتبة الرجلين ومدحهما، فقد أصبح جديراً بأن يُغْسل من هذا الكذب والإفك والمداراة

والمصانعة، إنّه يقول: (فما أجدرني ببلوغ التسبيع)؛ أي هو الجدير بأن يُسَبَّع، بعد هذه المكاتبة، وهذا المدح الكاذب الذي قد اضطرّ إليه.

لم يكن من سبيل لفهم النص فهماً مقبولاً مستساغاً يُبَدّد ما اعتمل في النفس من تناقضات، وما اعتراها من إحساس بالغرابة، إلّا وفق هذه القراءة القائمة على المفارقة، كآلية فعّالة في إيصالنا لمغزى رسالة الهناء ومحتواها الحقيقي من ذم وانتقاد لا مدح وتقريظ. وعليه فعنوانها (الهناء) لا يمكن أن يتواءم مع لغة المفارقة في النص والبيانات السياقية لعصر أبي العلاء، إلّا إن كان المعنى المقصود هو (الشقاء) وليس (الهناء). يمكننا القول إنّ المفارقة هي: "أداة أسلوبية فعّالة في تنمية قوى التماسك الدلالي للنص، وذلك باعتبار بنية المفارقة جزءاً من بنية نصيّة أكبر. إنها أداة لإعلاء دور السياق ذاته، الذي يكون المخاطب جزءاً ضرورياً منه"[107].

هذه قراءتنا لنصٍّ مليء بالعلم والمتعة لأديبٍ مليء الذهن، ذي بصيرة نافذة، من العيار الثقيل، فإن كانت مقنعة، فهذا ما أردناه، وإنْ لم تكن كذلك فمن حقنا أن نرى في هذه الرسالة مفارقة على اعتبار القاعدة التي تنص على "أننا إذ يحق لنا التساؤل إن كان شيء بعينه قد قيل أو فُعل بقصد المفارقة، فإننا لا يحق لنا مناقشة حق المرء أن يرى في شيء مفارقة. ولكن بوسعنا مناقشة الحس أو الذوق لديه"[108].

الخاتمة

ننتهي إلى القول: إنّ رسالة "الهناء" ارتكزت في بنيتها الأساسية – بالكامل – على المفارقة، وتوافرت على أنماط عديدة لها، كانت المفارقة اللفظية بأسلوبيها أبرزها؛ كون المعري لغوياً من الدرجة الأولى. وجاءت المفارقة الدرامية لتتحقق في القصتين اللتين استحضرهما المعري على ألسنة الحيوانات، متداخلة بمفارقة الأحداث والمفارقة الملحوظة. لقد كانت المفارقة الوسيلة المنجية التي ركب المعري متنها لتنتشله من هذا التورّط الذي وقع فيه لمكاتبة رجلي السياسة/ الوزيرين ومدحهما، فشكّلت له الغطاء الأمني اللازم؛ كونها لغة

مراوغة تخدع الرقابة، كما اتّخذها وسيلة لفضح عيوب مجتمعه في محاولة منه لإصلاحها بعد أن أحسّ باليأس، وفشلت لديه كل الوسائل الممكنة. فرسالة "الهناء" ما هي إلّا رسالة موجهة لقارئ يعي فحواها القائم على الشقاء المطبق.

الهوامش والمراجع

(1) المعري، أبو العلاء: **رسالة الهناء**، تحقيق: كامل كيلاني، بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1979، ص3.

(2) ابن الأثير، أبو الحسن: **الكامل في التاريخ**، ج7، ط4، بيروت: دار الكتاب العربي، 1983، ص261.

(3) المعري، أبو العلاء: **رسائل أبي العلاء**، ج1، ط1، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار الشروق، 1982، ص71.

(4) رسالة الهناء، ص79.

(5) رسالة الهناء، ص85-86.

(6) رسالة الهناء، ص36-37.

(7) رسالة الهناء، ص53.

(8) رسالة الهناء، ص56.

(9) رسالة الهناء، ص93-94.

(10) رسالة الهناء، ص59-60.

(11) رسائل أبي العلاء المعري، ص71-72.

(12) رسالة الهناء، ص95.

(13) سورة المائدة، آية: 32.

(14) رسالة الهناء، ص104.

(15) رسالة الهناء، ص65.

(16) رسائل أبي العلاء المعري، ص72.

(17) رسالة الهناء، ص108-120.

(18) رسالة الهناء، ص68.

(19) رسالة الهناء، ص140.

(20) وفي المجالس المؤيّدية: "أما التسبيع فهو نعت أصيل من جملة أصول كثيرة تركوا وسمكم بها، واقتصروا على واحد من جملتها"، الشيرازي، المؤيد في الدين: **المجالس المؤيّدية**، تحقيق: محمد عبد القادر عبد الناصر، القاهرة: دار الثقافة، 1975، ص110.

(21) رسائل أبي العلاء، ص72.

(22) رسالة الهناء، ص93.

(23) العبد، محمد: **المفارقة القرآنية: دراسة في بنية الدلالة**، ط2، القاهرة: مكتبة الآداب، 2006، ص28.

(24) قاسم، سيزا: "المفارقة في القصّ العربي المعاصر"، **فصول**، الهيئة المصرية العامة للكتاب: ع2، 1982، ص144.

(25) إبراهيم، نبيلة: "المفارقة"، **فصول**، الهيئة المصرية العامة للكتاب: ع4/ 3، 1987، ص132، نقلاً عن:

- A Rhetoric of Irony.

(26) المفارقة القرآنية، ص29، نقلاً عن:

- Enkvist. N., E: Linguistic Stylistics, P. 88.

(27) هيرنادي، بول: **ما هو النقد؟**، ترجمة: سلافة حجاوي، ط1، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1989، ص127.

(28) ما هو النقد؟ ص127.

(29) ميويك، د.سي: **موسوعة المصطلح النقدي، 13، المفارقة وصفاتها**، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، ط2، بغداد: دار المأمون، 1987، ص44.

(30) "المفارقة في القصّ العربي المعاصر"، ص144.

(31) المفارقة القرآنية، ص28.

(32) "المفارقة في القص العربي المعاصر"، ص144.

(33) رسالة الهناء، ص125.

(34) "المفارقة في القص العربي المعاصر"، ص143.

(35) محمد الأمين، محمد سالم: "اللغة المفارقة في رواية شرف لـ: صنع الله إبراهيم"، **إبداع**: ع4، 1999، ص53.

(36) "المفارقة"، ص132، نقلاً عن A Rhetoric of Irony.

(37) موسوعة المصطلح النقدي، ص67.

(38) موسوعة المصطلح النقدي، ص67.

(39) سليمان، خالد: "نظرية المفارقة"، **مجلة أبحاث اليرموك**، جامعة اليرموك، ع2، 1991، ص71.

(40) شبانة، ناصر: **المفارقة في الشعر العربي الحديث**، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2002، ص64.

(41) "نظرية المفارقة"، ص73.

(42) "نظرية المفارقة"، ص68-69.

(43) موسوعة المصطلح النقدي، ص32.

(44) موسوعة المصطلح النقدي، ص67.

(45) موسوعة المصطلح النقدي، ص75.

(46) المفارقة في الشعر العربي الحديث، ص67. نقلاً عن:

- The New Encyclopedia Brittanica, 6/390.

(47) "نظرية المفارقة"، ص72.

(48) "نظرية المفارقة"، ص72-73.

(49) "نظرية المفارقة"، ص73.

(50) المفارقة في الشعر العربي الحديث، ص67.

(51) موسوعة المصطلح النقدي، ص32-33.

(52) "نظرية المفارقة"، ص73-74.

(53) موسوعة المصطلح النقدي، ص79.

(54) "اللغة المفارقة في رواية شرف لـ: صنع الله إبراهيم"، ص51.

(55) عبد الرحمن، عائشة (بنت الشاطئ): **الغفران لأبي العلاء المعري**، ط3، مصر: دار المعارف، 1968، ص5-45.

(56) الغفران لأبي العلاء المعري، ص20.

(57) الغفران لأبي العلاء المعري، ص21.

(58) عبادة، السيد: **أبو العلاء الناقد الأدبي**، ط1، القاهرة: دار المعارف، 1987، ص18-19.

(59) أبو العلاء الناقد الأدبي، ص 19.

(60) حسين، طه: **مع أبي العلاء في سجنه**، ط1، مصر: دار المعارف، 1976، ص 83.

(61) المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري، ص183.

(62) المفارقة في القص العربي المعاصر، ص144.

(63) الوقاد، نجلاء علي حسين: **بناء المفارقة في فن المقامات عند بديع الزمان الهمذاني والحريري**، القاهرة: مكتبة الآداب، 2006، ص235.

(64) بناء المفارقات في فن المقامات عند بديع الزمان الهمذاني والحريري، ص235.

(65) رسالة الهناء، ص73.

(66) موسوعة المصطلح النقدي، ص64.

(67) موسوعة المصطلح النقدي، ص79.

(68) موسوعة المصطلح النقدي، ص51.

(69) رسالة الهناء، ص79.

(70) موسوعة المصطلح النقدي، ص80.

(71) موسوعة المصطلح النقدي، ص48.

(72) رسالة الهناء، ص82.

(73) موسوعة المصطلح النقدي، ص80.

(74) سليمان، خالد: "المفارقة في رواية نجيب محفوظ حضرة المحترم"، **مجلة أبحاث اليرموك**، جامعة اليرموك: ع2، 1996، ص190.

(75) إبراهيم، نبيلة: **فن القص في النظرية والتطبيق**، القاهرة: مكتبة غريب، 1980، ص86.

(76) سليمان، خالد: "المفارقة في شعر محمود درويش"، **مجلة أبحاث اليرموك**، جامعة اليرموك: ع2، 1995، ص239.

(77) رسالة الهناء، ص82-86.

(78) موسوعة المصطلح النقدي، ص21.

(79) السقا، مصطفى، وآخرون: **تعريف القدماء بأبي العلاء**، عن إنباه الرواة على أنباه النحاة، للقفطي، ط3، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986، ص32.

(80) تعريف القدماء بأبي العلاء، عن إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، لياقوت الحموي، ص67.

(81) تعريف القدماء بأبي العلاء، ص68.

(82) تعريف القدماء بأبي العلاء، ص78.

(83) موسوعة المصطلح النقدي، ص46.

(84) موسوعة المصطلح النقدي، ص91.

(85) "المفارقة"، ص132.

(86) "المفارقة"، ص133.

(87) رسالة الهناء، ص 92-93.

(88) زيدان، عبد القادر: **قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986، ص266.

(89) رسالة الهناء، ص104-105.

(90) رسالة الهناء، ص105.

(91) عبد المهدي، عبد الجليل: **الحياة الأدبية في الشام**، ط1، عمان: مكتبة الأقصى، 1977، ص465.

(92) رسالة الهناء، ص94.

(93) رسالة الهناء، ص 11. وانظر: أبو جرادة، الصاحب كمال الدين: **زُبْدَةُ الحلب من تاريخ**

حلب، تحقيق: سهيل زكار، ج1، ط1، دمشق: دار الكتاب العربي، 1997، ص202-203. وانظر: تعريف القدماء بأبي العلاء، عن إنباه الرواة على أنباه النحاة، للقفطي، ص35-36.

(94) "المفارقة في القصّ العربي المعاصر"، ص143.

(95) المفارقة في الشعر العربي الحديث، ص61.

(96) رسالة الهناء، ص95-96.

(97) رسالة الهناء، ص105-106.

(98) "المفارقة في القص العربي المعاصر"، ص144.

(99) "المفارقة"، ص132.

(100) رسالة الهناء، ص122-124.

(101) القوصي، زينب، وآخرون: **شرح اللزوميات، نظم أبي العلاء المعري**، ج3، إشراف ومراجعة: الدكتور حسين نصار، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994، ص155.

(102) شرح اللزوميات، نظم أبي العلاء المعري، ج2، ص186.

(103) شرح اللزوميات، نظم أبي العلاء المعري، ج3، ص391.

(104) شرح اللزوميات، نظم أبي العلاء المعري، ج2، ص178.

(105) قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري، ص258.

(106) رسالة الهناء، ص125.

(107) المفارقة القرآنية، ص37.

(108) موسوعة المصطلح النقدي، ص55.

مجلة الحقوق

مجلة فصلية أكاديمية
محكّمة تعنى بنشر البحوث
والدراسات القانونية والشرعية

تصدر عن مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت

رئيس التحرير
الدكتور فيصل عبدالله الكندري

صدر العدد الأول في
يناير ١٩٧٧

الاشتراكات

	في الكويت	في الدول العربية	في الدول الأجنبية
الأفراد	٣ دنانير	٤ دنانير	١٥ دولاراً
المؤسسات	١٥ ديناراً	١٥ ديناراً	٦٠ دولاراً

المراسلات

توجه جميع المراسلات إلى رئيس التحرير على العنوان الآتي:
مجلة الحقوق - جامعة الكويت ص.ب: ٦٤٩٨٥ الشويخ - ب 70460 الكويت
تلفون: ٢٤٨٣٥٧٨٩ - ٢٤٨٤٧٨١٤ فاكس: ٢٤٨٣١١٤٣
E.mail: jol@ku.edu.kw

عنوان المجلة في شبكة الإنترنت http://www.pubcouncil.kuniv.edu.kw/jol

ISSN 1029 - 6069